مجلة الرائد

العدد : ٢٤٢ الموافق في ربيع الأول ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٤ ميلادي

عنوان المقال :بوكانان وصراع الحضارات	الكاتب :ممدوح الشيخ

طرحت أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة العديد من الأسئلة حول العلاقة بين الإسلام والغرب ومكامن الخطر في رؤية كل منهما للآخر ، وعبر تاريخ طويل من التدافع بين الطرفين تجذرت مخاوف كثيرة بعضها له ما يبرره . وفي حالة الاضطراب الشديد التي تلت الأحداث طاشت تصريحات نحت نحو تعزيز مفهوم العداء وحتمية الصراع ، (جورج بوش ، ثم سيلفيو بيرلسكوني ، ثم جون أشكروفت ، ..) . غير أن التركيز المبالغ فيه على هذا الخطاب الصدامي يجعلنا نغفل أصواتاً أخرى في الغرب تتبنى منهجاً مغايراً ، ليس الأهم فيه أنه ينصفنا أو ينصف حضارتنا ، فلسنا في حاجة إلى تعزية !! لكن الأهم أنه يرى نقاط ضعف وقوة في الطرفين لا تحظى بالاهتمام الكافي ، ويحتكم إلى توازنات قوى مختلفة نوعياً .

موت الغرب

وخروجاً على السائد في الخطاب الإعلامي الغربي كتب السياسي الأمريكي " باتريك ج. بوكانان " (فبراير ٢٠٠٢م) ، مقالاً استشرافياً تحليلياً حول الحرب التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية ضد ما تسميه " الإرهاب"عنوانه: " **هل ستندلع حرب الحضارات ؟** " نشر في " منتدى البرافدا " على شبكة إنترنت . وأهمية المقال تنبع من أن كاتبه قدم مرتين على قائمة المرشحين داخل الحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية ، وفي عام ٢٠٠٠م كان مرشح الحزب الإصلاحي للانتخابات نفسها . وهو الآن معلق ومحلل سياسي بعد أن عمل مع ثلاثة رؤساء في البيت الأبيض . ومقال بوكانان لا يعد خروجاً على المألوف ، فقط ، لكونه يتنبأ بفشل الغرب في الانتصار في معركة محتملة ضد " الإرهاب " بل لأنه معروف بروحه القتالية العالية في كتاباته ، فقد ألف عدة كتب نشر آخرها في يناير ٢٠٠٢م وعنوانه : " موت الغرب " . وفيه يحذر من أن تضع الأوضاع الديمغرافية نهاية الجنس الأبيض ، ويدعو لإغلاق باب الهجرة في وجه كل من لا يؤمن بقيم الحضارة الغربية بعد أن أصبح البيض ، بسبب التعددية الثقافية ، في وضع دفاع عن " ثقافتهم المحاصرة " حتى داخل الولايات المتحدة الأمريكية .

وهو - إلى جانب ما سبق - واحد من السياسيين الأمريكيين القلائل الذين لا يخضعون لابتزاز اللوبي الصهيوني ، ففي عام ١٩٩٦م مارس الصهاينة ضغوطاً لإزالة دير للراهبات الكرمليات في معتقل " أوشفتس " الذي يعد أشهر معتقلات الإبادة النازية ، في مسعى يهدف لاحتكار دور الضحية في

" الهولوكوست " النازي ، وعندما أصرت المؤسسة الكاثوليكية في بولندا على بقائه نشبت معركة إعلامية ساخنة بين الطرفين ، فكتب بوكانان مقالاً يكفي عنوانه للدلالة على محتواه ، وهو : « **الكاثوليك ليسوا في حاجة إلى محاضرات في الأخلاق من سفاح عصابة شتيرن السابق** » ، وقد يكون انتماؤه للمذهب الكاثوليكي كافياً لتفسير خروجه عن الخطاب الإعلامي السائد في الولايات المتحدة ، لكن كتابه الأخير دفاع مجيد عن الجنس الأبيض وحضارته وقيمه وسيادته ، فلماذا يتنبأ بفشله في مواجهة الإسلام ؟

لن نستطيع ..!

يقرر بوكانان في مقاله بوضوح أن : « **كثيرين ، في العالم الإسلامي وفي الغرب على السواء ، يعتقدون أن حرباً بين الحضارات ستندلع ، بل يتمنونه بشغف ، ومع ارتفاع أصوات الداعين لضرب العراق ، ومع إطلاق العنان لشارون بعد فظائعه ، ومع الدعوات الأمريكية لفك الروابط مع العربية السعودية ومصر** » ، « **فقد انتقل تصادم الحضارات من مجال الممكن إلى مجال المحتمل** » . ويضيف بوكانان أن « **الرئيس بوش يبدو واعياً بصورة " غريزية " بأن مثل هذه الحرب ستكون كارثة . وليس المهم كم نقتل وحجم الخسارة التي سنلحقها بالخصم ، لكننا لن نستطيع أن نقضي على الإسلام مثلما قضينا على النازية والفاشية والروح العسكرية اليابانية والبلشفية السوفيتية** » .

ورغم أن بوكانان يتحدث كغربي ويعتبر أن الغرب نجح بالفعل في القضاء على النازية والفاشية والروح العسكرية اليابانية والبلشفية السوفيتية ، فإنه يحاول قراءة تاريخ الأمة الإسلامية بعقل أكثر حياداً وعين أكثر بصيرة ، وفي هذا السياق يقول : « لقد استطاع الإسلام البقاء على مدى ١٥٠٠ سنة تقريباً ، كما أنه العقيدة المهيمنة على ٥٧ بلداً ، إنه غير قابل للتحطيم » . والمفارقة أنه قبل عقود عندما كان الإسلام « يرزخ تحت أقدام الإمبراطوريات الغربية » كتب غربيون كثيرون يتنبؤون بصحوة العالم الإسلامي مرة أخرى ويتوقعون تجدد الصراع بين " الثقافة المسيحية " (مع ما في التعبير من افتقار للدقة إذ يطلق لوصف الثقافة السائدة في الغرب حالياً) من جهة وبين الذي شكّل طيلة أكثر من ألف عام منافسها الأكثر شراسة .

« وفي الماضي - والكلام لبوكانان - شكّل الإسلام تحدياً للغرب لأنه كرَّس فكرة وحدة الإله وعدله ورحمته ، مع تشديده على المساواة بين البشر أمام هيمنة الخالق ، وبينما كان المسيحيون غارقين

في الأمية ، انتشر الإسلام طيلة ٧٠٠ عاماً إلى أن هيمن على البلقان وسهول هنغاريا وجميع المناطق الأخرى باستثناء أوروبا الغربية ، نفسها محطماً معقل المسيحية بفعل تفوقه المادي والعلمي » .

« وقد أنقذ الغربَ ثلاثةُ أبطال :

في معركة تور بواتييه (بلاط الشهداء) ، أوقف شارل مارتل المد الإسلامي عبر فرنسا .

وفي العام ١٥٧١م حطم أسطول دون خوان النمساوي الأرمادا المحمدية (أسطول المسلمين) في معركة عظيمة ، خلدت باسم " جولة ليبانتو " .

وفي ١١ سبتمبر ١٦٨٣م أوقف الملك الكاثوليكي البولندي جون سوبييسكي الأتراك في فيينا » .

والصورة التي يرسمها بوكانان ترصد أبعاداً للتحدي تتجاوز حقائق الجغرافيا ودوائر المصالح ، فالإسلام يشكل بالنسبة للغرب تحدياً ثقافياً كبيراً ، وهو ينظم تور وليباتنو وفيينا في سلك واحد ، منحازاً بذلك ضمناً إلى أن المواجهة هي بين جبهتين كبيرتين ممتدة فصولها في الزمان والمكان .

صدام القوة العقيدة

لكن إذا كان صدام الحضارات قادماً ، فكيف سيكون توازن القوى ؟ ويجيب بوكانان بأن الغرب متفوق من حيث القوة ، مهما قلنا إن التفوق المادي لم يمنع انهيار الإمبراطوريات الغربية كما لم يمنع سقوط الإمبراطورية السوفييتية ، « وإذا كان عامل العقيدة حاسماً ، فإن الإسلام نضالي حركي ، بينما المسيحية جامدة ، والإسلام ينمو بينما المسيحية تذبل . المحاربون المسلمون مستعدون لمواجهة الهزيمة والموت ، بينما يتحاشى الغرب تكبد الخسائر » . وهو بعد الوصف والتحليل يتوجه لصناع القرار في الغرب محذراً : « **لا تستهينوا بالإسلام إنه الديانة الأسرع انتشاراً في أوروبا وقد تجاوز المسيحية عبر العالم . وبينما تقترب المسيحية من نهايتها في الغرب ، وحيث الكنائس فارغة تتوسع المساجد وتمتلئ** » . ثم يصل بوكانان إلى السؤال المركزي في المقال فيقول : « **لكي تهزم عقيدة فإنك تحتاج إلى عقيدة ، ما عقيدتنا نحن ؟ النزعة الفردية ؟ الديمقراطية ؟ التعددية ؟ الحياة الرغيدة ؟ هل بإمكانهم التفوق على عقيدة لها ١٥ قرناً من الوجود وهي الآن تنهض مرة أخرى ؟** » .

ثنائية الرفض والخوف

ورغم أن بوكانان متخلص في خطابه إلى حد بعيد من روح التعالي وغطرسة القوة ، التي تكاد تكون سمة للخطاب الغربي عن الإسلام ، فإنه ليس ممن يعارضون مقولة " صدام الحضارات " ، لكنه ينذر الغرب الذي يجهل الفروق بين الأيدلوجيا والدين ، فهو يتوقع هزيمة الغرب إذا خاض صراعاً هدفه القضاء على الإسلام . والمقال يرصد إشكالية من أكبر إشكاليات الحضارة الغربية هي أنها حضارة إجراءات في المقام الأول ، وقد زهدت - بإغراء النجاح المذهل الذي تحقق على المستوى الإجرائي - في أن تكون لها رؤية كونية تتأسس عليها منظومات قيمية لها صفة المطلقية ، تستطيع أن تنتشر عالمياً في محيط يساوي محيط انتشار منتجات التقنية الغربية ، ونمط الحياة الغربي .

وعندما يتحدث بوكانان عن الفرق بين درجة استعداد كل من الطرفين للتضحية ، فإنه يتحدث عن المواطن الغربي الذي يتحاشى الخسائر ، بوصفه نتاجاً لكون الغرب مسيحياً ، وهو ظلم بيّن للمسيحية كدين سماوي منح أتباعه لمئات السنين القدرة على التضحية ، حتى أن الفصل الأول من تاريخ المسيحية يشار إليه بتعبير " عصر الشهداء " . والراجح أن بوكانان الذي يشير بصراحة تامة إلى تقدم الإسلام وانتشاره الواسع عالمياً ، لا يريد أن يعترف أنه يشكل تحدياً للحضارة الغربية بماديتها المفرطة وعجزها عن أن تلبي حاجات الإنسان الروحية والنفسية بالكفاءة التي لبت بها مطالبه المادية ، بل جعلتها تتزايد أضعافاً مضاعفة .

وهو يحمل المسيحية التي يصفها بأنها تقترب من نهايتها في الغرب النتيجة منفردة ، رغم أن اتجاهها نحو النهاية بدأ مع حركة التنوير التي دفعت الدين إلى زاوية مظلمة في الغرب كله . وما أحرزه الإسلام من انتشار ، وبخاصة في الغرب، ملأ الفراغ الذي خلقته العلمانية ، وهو يشير إلى قرب نهاية الحضارة الغربية نفسها ، لا كدول قوية متقدمة ، بل كرؤية تستبعد المعايير الدينية والأخلاقية وتحل القوة والمنفعة محلها . وإذا كان الغرب قد نجح عبر حربين عالميتين في القضاء على النازية والفاشية وأن ينتصر على الشيوعية دون صراع عسكري ، فإنه قد أدار صراعاً مع عدو بعيد أمكنه إقامة حواجز معنوية تفصله عنه .

عنوان المقال :بوكانان وصراع الحضارات	الكاتب :ممدوح الشيخ

أما الإسلام فقد أصبح بالفعل جزءاً من واقع الحياة في الغرب من خلال ملايين المسلمين الغربيين الذين شكل اعتناقهم الإسلام منعطفاً في تاريخ الغرب . كما أن الغرب في الجولات السابقة كان يواجه خصوماً يشكلون تحدياً لقيمه " الحرية " ، الأمر الذي أعطى صراعه معها مصداقية يفتقر إليها الصراع مع الإسلام ، فهو لم يكن أبداً تربة صالحة لنمو الأفكار الشمولية أو الفاشية . وخوض مثل هذا الصراع يعني أن يتبنى الغرب منطق سلوبودان ميلو سيفيتش ، وأن يعيد الاعتبار لمحارق النازي ، وهو ما لا يقدر عليه الغرب ، على الأقل حتى الآن!!.